الفصل الثاني

قواعد المنهج النبوي في التربية

سبق أن أشرنا أن النبي إبراهيم ـ عليه السلام ـ دعا ربَّه أن يبعث في هذه الأمة رسولاً هادياً إلى أقوم السبل، فقال: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩].

واستجاب الله تعالى تلك الدعوة، وأرسل رسولَه محمداً ﷺ بالحق؛ ليخرج الناس من ظلمات الضلالة إلى أنوار الهداية، وكانت رسالته ذات أبعاد عظمى، وخطة محكمة، قادت الناس من غلواء الجاهلية، وعفن الماضي، إلى وسطية الإسلام، وازدهار المستقبل.

كما أشرنا إلى أن رسول الله ﷺ اتبع منهجاً قواعده أربعة أركان، هي: التلاوة، والتعليم، والحكمة، والتزكية.

أمَّا **التلاوة** فتختصُّ باتباع آيات الله المنزلة، تارة بالقراءة، وتارة بالارتسام لما فيها من أمرٍ ونهي، وترغيب وترهيب. والتلاوة أخصُّ من القراءة، فكلُّ تلاوة قراءة، وليس كل قراءة تلاوة. فلا يقال: تلوتُ رقعتك، وإنما يُقال في القرآن في شيءٍ إذا قرأته وجب عليك اتباعه[1].

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (١٦٧).

قال عز وجل: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ [الأنفال: ٣١] ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

وأما قوله: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١] فاتباعٌ له بالعلم والعمل[١].

وبيَّن ﷺ أنَّ مِنْ حق كتاب الله أن يداوم الناسُ على تلاوته، ويكثروا من قراءته؛ ذلك أن القلوب تصدأ بالمعاصي وارتكاب الموبقات، وقراءة القرآن تزيل الصدأ الذي علق بتلك القلوب، ويُعيدها إلى حالة الإيمان العميق، واليقين الجازم، مع تجديد محبة العمل الصالح، والرغبة الأكيدة في اكتساب الخير، ومتابعة الخطى على الطريق القويم.

عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد».

قيل: فما جَلاؤها يا رسولَ الله؟ قال: «كثرة تلاوة كتاب الله تعالى، وكثرة الذكر لله عز وجل»[٢].

وقال ﷺ: «فَضْلُ قراءة القرآن نَظَراً على مَنْ يقرؤه ظاهراً كفضل الفريضة على النافلة»[٣].

قال المناوي: وإنما فُضِّلتِ القراءةُ في المصحف لحظِّ النظر فيه، وحَمْله، ومَسِّه، وتمكُّنه من التفكير فيه، واستنباط معانيه.

وقال ابنُ كثير في «فضائل القرآن»: الذي صرَّح به كثيرون من العلماء أنَّ قراءة القرآن من المصحف أفضل؛ لأنه يشمل على التلاوة والنظر في المصحف، وهو عبادة، كما صرَّح به غيرُ واحد من السلف، وكرهوا أن

---

(١) المصدر السابق (١٦٨).

(٢) رواه ابن شاهين في: الترغيب في الذكر، كما في كنز العمال (٣٩٢٤).

(٣) رواه أبو عبيد في فضائل القرآن (١٠٤) وابن كثير في فضائل القرآن (١٠٨).

يمضي على الرجل يومٌ لا ينظر في مصحفه ، وهذا أمرٌ مطلوب؛ لئلاَّ يُعَطَّـل المصحف فلا يُقرأ منه ، ولعلَّه قد يقع لبعض الحفظة نسيان فيتذكَّر منه ، أو تحريف كلمة ، أو آية ، أو تقديم ، أو تأخير ، فالاستثبات أولى ، والرجوع إلى المصحف أثبتُ من أفواه الرجال.

والمدارُ في هذه المسألة على الخشوع في القراءة ، فإن كان الخشوعُ عند القراءة عن ظهر القلب فهو أفضل ، وإن كان عند النظر في المصحف فهو أفضل، فإن استويا فالقراءة نَظَراً أولى؛ لأنها أثبت، وتمتازُ بالنظر في المصحف.

ويُقصد بالخشوع: التذلُّل ، ورَمْي البصر إلى الأرض ، وخفض الصوت ، وسكون الأعضاء.

وقيل: هو حضورُ القلب ، وسكون الجوارح ، وفي (التهذيب) قال الأزهري: التخشُّع لله: الإخباتُ والتذلُّل.

والتدبُّر: هو التفهُّم والتعقُّل لمعنى ما يقرؤه حسب الطاقة.

وقد بات جماعةٌ من السلف يتلو الواحدُ منهم آيةً واحدة ليلةً كاملة ، أو معظم ليلةٍ يتدبَّرها ، ومن ذلك ما قاله مسروق عن رجل من أهل مكة: هذا مقامُ تميم الدَّاريِّ ، لقد رأيتُـه ذات ليلةٍ حتى أصبح ، أو قُرْب أن يُصْبح ، يقرأ آيـةً من كتاب الله ، ويركـع ، ويسجد ، ويبكي؛ ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [الجاثية: ٢١].

وقال إبراهيم بن الأشعث: كثيراً ما رأيتُ الفُضَيْلَ بن عياض يُـردِّد من أول الليل إلى آخره هذه الآية ونظيرها ، ثم يقول: ليت شعري ، من أيِّ الفريقين أنا؟!

وكانتْ هذه الآية تُسمَّى: مبكاة العابدين[1].

وكان ﷺ قدوةً صالحة في تلاوة القرآن ، فعن أبي ذرّ ـ رضي الله عنه ـ أن

---

(١) تفسير القرطبي (١٦/ ١٦٦).

النبيَّ ﷺ لم يزل يُردِّد هذه الآية حتى أصبح: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨][1].

وقد أوضح ﷺ فَضْل تلاوة القرآن في الصلاة، فعن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ قام بعشر آيات لم يُكتب من الغافلين، ومَنْ قام بمئة كُتب من القانتين، ومَنْ قام بألف آية كُتب من المُقَنْطرين»[2].

وعن ابن عمر قال: سُئِل رسولُ الله ﷺ: أيُّ الأعمال أفضل عند الله؟ قال: «قراءة القرآن في الصلاة، ثم قراءة القرآن في غير الصلاة؛ فإنَّ الصلاة أفضل الأعمال عند الله، وأحبُّها إليه، ثم الدعاء والاستغفار؛ فإنَّ الدعاءَ هو العبادة، وإنَّ الله يحبُّ الملحَّ في الدعاء، ثم الصدقة فإنها تطفىء غَضَبَ الرب، ثم الصيام فإن الله تعالى يقول: الصيام لي وأنا أجزي به، والصيام جُنَّة للعبد من النار»[3].

قال القرطبي[4]: قال علماؤنا ـ رحمة الله عليهم ـ: هذا حديثٌ صحيح، عظيم في الدّين، بيّن فيه أن أعظم العبادات قراءةُ القرآن في الصلاة؛ وإنما كان كذلك لأنَّ الصلاة أفضلُ الأعمال عند الله، وأحبّها إليه؛ لأنها اشتملت على جميع العبادات بالمعنى، ومِنْ فَضْلها سُمِّيت جميعُ الأعمال بها، قال اللهُ تعالى مُخْبِراً عن قوم شعيب عليه السلام: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ [هود: ٨٧] أي: أعمالك الصالحة، وذلك أنه كان كثير الصلاة، فحملوا سائر أفعاله على معظمه وهي الصلاة.

وقيل: أطلق على كلِّ عمل اسم الصلاة تشريفاً، كما أطلق عليها اسم الإيمان؛ إذِ المعنى في الكل واحد، ولأنها عبادة الملائكة، قال الله تعالى:

---

(١) رواه أحمد (٥/ ١٤٩) والنسائي (٢/ ١٧٧) وابن أبي شيبة في المصنف (٢/ ٤٧٧).
(٢) رواه أبو داود (١٣٩٨) وابن حبان (٢٥٦٣) وابن خزيمة (١١٤٤).
(٣) انظره في فيض القدير (٤/ ٥١٣) وكنز العمال (٢٣٠٣).
(٤) التذكار في أفضل الأذكار (٨٣).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] وقال في جميع الخَلْق: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴾ [الرعد: ١٥]، وجعلها تعالى من خصال إسماعيل، فقال: ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [مريم: ٥٥] ومن دعوة إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

ولا يُوصَف بالكفر مَنْ ترك شيئاً من الأعمال الصالحة سواها، قال النبي ﷺ: «مَنْ ترك الصلاة فقد كفر»(١).

وقال ﷺ: «بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة»(٢).

ويربط رسولُ الله ﷺ تلاوة القرآن بالدعاء وسؤال الله عز وجل من خيري الدنيا والآخرة، والدعاء لا يكونُ إلا من قلب خاشع، فغفلةُ القلب تُبْطِلُ قوة الدعاء، وهو سلاحُ المؤمن، وعمادُ الدِّين، ونورُ السموات والأرض، والله تعالى يحبُّ الملحِّين في الدعاء، فلا يهلك معه أحد، فرضا الله سُبحانه في سؤاله وطاعته، وإذا رضي الخالق فكلُّ الخير في رضاه.

وعن حذيفة أنه صلَّى مع النبي ﷺ فكان يقولُ في ركوعه: «سبحان ربي العظيم» وفي سجوده: «سبحان ربي الأعلى» وما أتى على آية رحمةٍ إلاَّ وقف وسأل، وما أتى على آية عذاب إلاَّ وقف وتعوَّذ(٣).

وعنه أيضاً أن النبي ﷺ صلَّى، وكان إذا مرَّ بآية رحمةٍ سأل، وإذا مرَّ بآية عذابٍ استجار، وإذا مرَّ بآية تنزيه الله سَبَّح(٤).

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٣٤٦) والترمذي (٢٦٢١) والنسائي (١/ ٢٣١ ـ ٢٣٢) وابن ماجه (١٠٧٩) وابن حبان (٢٥٦/ موارد) وابن أبي شيبة في الإيمان (٤٦) وانظره في الترغيب والترهيب (١/ ٣٨٦).

(٢) رواه أحمد (٣/ ٣٧٠ و٣٨٩) ومسلم (٨٢) وأبو داود (٤٦٧٨) والترمذي (٢٦١٩ و٢٦٢٠) وابن ماجه (١٠٧٨).

(٣) رواه الترمذي (٢٦٢).

(٤) رواه ابن ماجه (١٣٥١).

وعن عمران بن حُصَيْن أنه مرَّ على قارىء يقرأ ، ثم سأل فاسترجع ، ثم قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ قرأ القرآنَ فليسألِ اللهَ به ، فإنه سيجيء أقوامٌ يقرؤون القرآن يسألون به الناس»[1].

ويُستحب الإكثارُ من قراءة القرآن وتلاوته خارج الصلاة ، قال عز وجل مُثنياً على مَنْ كان ذلك دأبه: ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ [آل عمران: ١١٣].

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ : «لا حَسَدَ إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه اللهُ هذا الكتاب ، فقام به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالاً فتصدَّق به آناء الليل وآناء النهار»[2].

ورغَّب رسولُ الله ﷺ بقراءة القرآن؛ لما في ذلك من الأجر العظيم ، فعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول الم حرفاً ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف»[3].

وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يقول الربُّ تبارك وتعالى: مَنْ شَغَله القرآنُ عن مسألتي أعطيتُه أفضل ما أُعْطِي السائلين ، وفَضْلُ كلام الله على سائر الكلام كفَضْل الله على خَلْقِه»[4].

ولا فكاك بين القراءة والفهم والتدبر؛ لأن ترديد الألفاظ دون إحساس بالمعنى ، أو وعي للمغزى ، لا يُحقِّق الهدف من القراءة ، وتلاوة الآيات.

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٤٣٢ و٤٣٣) والترمذي (٢٩١٧) وابن أبي شيبة في المصنف (١٠٠٥١).

(٢) رواه البخاري (٥٠٢٥) ومسلم (٨١٥).
«لا حَسد»: لا غبطة محمودة؛ لأن الحسد: تمني زوال النعمة من غيره ، وهو حرام؛ أما الغبطة فجائزة شرعاً؛ لأنها تمني المرء أن يكون له مثل هذه النعمة ، مع بقائها لصاحبها.

(٣) رواه الترمذي (٢٩١٠).

(٤) رواه الترمذي (٢٩٢٦).

ولنسمع قول الله عز وجل: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩] والتدبر: وعي وإدراك، وتجاوز للقراءة السطحية؛ التي ليس وراءها أي إحساس بالمعنى، أو غوص لتحسُّس المعاني، والتبصر بالدلالات.

وقد يغيب عن القارىء معنى كلمة قد تكون غريبة على مسامعه، أو أكثر، ولا يتناقض هذا مع فهم المعنى، واستنتاج المقاصد، ولكن من غير المقبول أن ينتهي القارىء للقرآن إلى ذلك النوع الذي ذكره اللهُ تعالى حين وصف عباد الرحمن، فقال عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣].

فمن قرأ القرآن عليه أن يُحلِّق في أجوائه الصافية، ويدرك آثاره سلوكاً حَسَناً ينداح في حيِّز الواقع، فيصدر في أفعاله عن تدبُّرٍ أمثل لما جاء في آي الذِّكْر الحكيم، فَيُعْرَفُ القارىء بخلقه الحميد، متأثراً بما قالته السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ وقد سألها قتادة: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن خُلُق رسول الله ﷺ، فقالت: ألستَ تقرأُ القرآنَ؟ قلتُ: بلى: قالتْ: فإنَّ خُلُقَ نبيِّ الله ﷺ كان القرآن[1].

ومعنى قول عائشة: أن النبيَّ ﷺ كان يعمل بالقرآن، ويقف عند حدوده، ويتأدَّب بآدابه، ويعتبر بأمثاله وقصصه، ويتدبَّره، ويُحْسِن تلاوته.

فالقرآن كتاب يصنع الفكر، ويُهيِّىء الأفراد، ويبني الأمة، ويشيد الحضارة؛ إذ يفتح العيون والبصائر لتنتفع بالنور، دون غَبَش في الرؤية، أو تأرجح في المسيرة؛ لأن الهدف واضح، والطريق مستقيم، والقرآن نور تُشْرِق به النفوس، فيتكشَّف أمامها كل شيء. قال عز وجل: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٦].

---

(١) رواه مسلم (٧٤٦).

أَلاَ فليعلم القارئُ الكريم أن قراءة القرآن تعني تلاوته ، وفُسِّر قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١] باتباع الأمر والنهي؛ بتحليل حلاله ، وتحريم حرامه ، والعمل بما تضمَّنه[١].

وتُسَنُّ القراءة بالتدبُّر والتفهُّم ، فهو المقصود الأعظم ، والمطلوب الأهم ، وبه تنشرح الصدور ، وتستنير القلوب. قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]. وقال عز وجل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]. وصفةُ ذلك: أن يشغل قلبه بالتفكر في معنى ما يلفظ به؛ فيعرف معنى كل آية ، ويتأمل الأوامر والنواهي ، ويعتقد قبول ذلك ، فإن كان مما قصَّر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر ، وإذا مرَّ بآية رحمة استبشر وسأل ، أو عذاب أشفق وتعوَّذ ، أو تنزيه نزَّه وعظَّم ، أو دعاء تضرَّع وطلب[٢].

وقد مَدَحَ رسولُ الله ﷺ مَنْ أجاد تلاوة القرآن ، ولم يتردَّد فيه ، فهو مُيسَّر له في القراءة والحفظ ، وله مكانة مرموقة مع الملائكة ، أي: في مرتبتهم في هذه العبادة. والذي يقرأ القرآن ، ويتردَّد في تلاوته عِيّاً وصعوبة؛ فله أجران ، من حيث التلاوة ، ومن حيث المشقة ، ودرجات الماهر بالقرآن فوق ذلك كله؛ لأنه قد كان القرآن مُتعتعاً عليه ، ثم ترقَّى عن ذلك إلى أن شُبِّه بالملائكة. قال ﷺ: «الماهرُ بالقرآن مع السَّفَرة الكرام البَرَرة ، والذي يقرأ القرآن وَيَتَتَعْتَعُ فيه ، وهو عليه شاق ، له أجران»[٣].

ودَعَا ﷺ إلى قراءة القرآن ، وبيَّن منافعَ تلك القراءة في الآخرة ، حيث يأتي القرآن شافعاً ، فإن كان القارىء صاحب كبيرة خلَّصه من النار ، وإن لم

---

(١) تفسير القرطبي (٢/ ٨٦).

(٢) الإتقان (١٠٦) والبرهان في علوم القرآن (١/ ٤٥٥) والتبيان في آداب حملة القرآن (٤٥) والموسوعة الفقهية (٥/ ٢٥٥).

(٣) رواه البخاري (٤٩٣٧) ومسلم (٧٩٨).

يكن عليه ذنوب شَفَع له في رفع درجاته في الجنة ، قال ﷺ: «اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه»[1].

وبوَّب البخاري ـ رحمه الله ـ في كتاب: فضائل القرآن ، باباً بعنوان: فَضْل القرآن على سائر الكلام ، وأورد فيه حديثين ، الأول منهما: عن أبي موسى الأشعري ، عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ الذي يقرأ القرآن كالأترُجَّة؛ طعمها طيِّب وريحُها طيب ، والذي لا يقرأ القرآن كالتمرة؛ طعمها طيِّب ولا ريح لها ، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن؛ كمثل الريحانة ريحها طيِّب وطعمها مرٌّ ، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن؛ كمثل الحَنْظَلَة طعمها مُرٌّ ولا رِيْحَ لها»[2].

قال ابنُ حجر ـ رحمه الله ـ: إنَّ التمثيل وَقَع بالذي يقرأ القرآن ، ولا يخالف ما اشتمل عليه من أمرٍ ونهي ، لا مطلق التلاوة. . . وفي الحديث فضيلة حامل القرآن ، وضرب المثل لتقريب الفهم ، وأنَّ المقصود من تلاوة القرآن: العملُ بما دلَّ عليه. ومطابقةُ الحديث للترجمة من جهة ثبوت فَضْل قارىء القرآن على غيره ، فيستلزم فَضْلَ القرآن على سائر الكلام؛ كما فَضِّل الأترج على سائر الفواكه[3].

وأوصى ﷺ بكتاب الله عز وجل ، فعن طلحة بن مُصَرِّف قال: سألتُ عبد الله بن أبي أوفى ـ رضي الله عنهما ـ: هل كان النبيُّ ﷺ أوصى؟ فقال: لا ، فقلتُ: كيف كُتِب على الناس الوصيةُ ، أو أُمِرُوا بالوصية؟ قال: أوصى بكتاب الله[4].

قال ابنُ حجر: قوله: «أوصى بكتاب الله» أي: بالتمسُّك به ، والعمل

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٤٩ و٢٥٤) ومسلم (٨٠٤).
(٢) رواه البخاري (٥٠٢٠) ومسلم (٧٩٧).
(٣) فتح الباري (٩/ ٦٧).
(٤) رواه البخاري (٢٧٤٠).

بمقتضاه ، ولعلَّه أشار لقوله ﷺ: «تركتُ فيكم ما إن تمسَّكتم به لم تضلُّوا؛ كتاب الله»[1]. ولعلَّه اقتصر على الوصية بكتاب الله لكونه أعظم وأهمَّ ، ولأنَّ فيه تبيانَ كلِّ شيء؛ إما بطريق النص ، وإمَّا بطريق الاستنباط ، فإذا اتبع الناسُ ما في الكتاب عملوا بكل ما أمرهم النبيُّ ﷺ به؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧][2].

والمرادُ بالوصية بكتاب الله: حِفْظُه حسّاً ومعنى ، فيُكرم ، ويُصان ، ولا يُسافَرُ به إلى أرض العدو ، ويتبع ما فيه ، فيعمل بأوامره ، ويجتنب نواهيه ، ويداوم على تلاوته ، وتعلُّمه وتعليمه[3].

والأحاديث النبوية التي تدعو إلى تلاوة القرآن الكريم كثيرة ، ومنها:

عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قلتُ: يا رسولَ الله ، أوصني ، قال: «عليك بتقوى الله؛ فإنه رأس الأمر كلِّه». قلت: يا رسولَ الله ، زِدْني. قال: «عليكَ بتلاوة القرآن؛ فإنَّه نورٌ لك في الأرض ، وذُخْر لك في السماء»[4].

وعن سَهْل بن مُعاذ ، عن أبيه ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قرأ القرآن ، وعَمِل به؛ أُلْبِسَ والداه تاجاً يوم القيامة ضَوْءُه أَحْسَنُ مِنْ ضوء الشمس في بيوت الدنيا ، فما ظنُّكم بالذي عَمِل بهذا؟!»[5].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يجيءُ صاحبُ القرآن يومَ القيامة ، فيقول القرآنُ: يا ربِّ حَلِّهِ ، فَيُلْبَسُ تاجَ الكرامة ، ثم يقول: يا ربِّ زِدْهُ ، فَيُلْبَس حُلَّةَ الكرامة ، ثم يقول: يا ربِّ ارْضَ عنه ، فيرضى عنه ، فَيُقالُ له: اقرأْ وارْقَ ، ويزدادُ بكلِّ آيةٍ حَسَنَةً»[6].

---

(١) رواه الترمذي (٣٧٨٦).
(٢) فتح الباري (٥/ ٣٦١).
(٣) المصدر السابق (٩/ ٦٧).
(٤) رواه ابن حبان (٣٦٢).
(٥) رواه أبو داود (١٤٥٣) والحاكم (١/ ٥٦٧).
(٦) رواه الترمذي (٢٩١٥) والحاكم (١/ ٥٥٢).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يُقال لصاحب القرآن: اقرأْ وارْقَ، ورتِّل كما كنتَ تُرتِّلُ في الدُّنيا؛ فإنَّ منزلكَ عند آخر آية تقرؤها»[1].

قال الإمامُ الخطابي: جاء في الأثر: أنَّ عَدَدَ آي القرآن على قَدْرِ دَرَجِ الجنة، فيقال للقارىء: ارْقَ في الدَّرَج على قَدْر ما كنتَ تقرأ من آي القرآن، فَمَن استوفى قراءة جميع القرآن استولى على أقصى دَرَج الجنة في الآخرة، ومَنْ قرأ جزءاً منه كان رُقِيُّه في الدَّرَج على قَدْر ذلك، فيكون مُنتهى الثواب عند منتهى القراءة[2].

وعن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قرأ القرآنَ فقد استدرج النُّبوَّةَ بين جنبيه؛ غير أنه لا يُوحى إليه، لا ينبغي لصاحب القرآن أي يَحِدَّ مع مَنْ حدَّ، ولا يجهلَ مع مَنْ جَهِل، وفي جَوْفِه كلامُ الله»[3].

وعن أنس ـ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لله أهلين من الناس» قالوا: مَنْ هم يا رسول الله؟ قال: «أهلُ القرآن هُمْ أَهْلُ الله وخاصَّتُه»[4].

وعن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ القرآنَ فاستظهره، فأحلَّ حلالَه، وحَرَّم حرامَه؛ أدخله اللهُ به الجنة، وشفَّعه في عشرةٍ من أهل بيته، كلّهم قد وجبتْ لهم النار»[5].

---

(١) رواه أبو داود (١٤٦٤) والترمذي (٢٩١٤) وابن ماجه (٣٧٨٠) وابن حبان (٧٦٣).
(٢) الترغيب والترهيب (٢/ ٣٢٣) طبعة دار ابن كثير.
(٣) رواه الحاكم (١/ ٥٥٢).
«يحدّ»: يغضب، وينفعل.
(٤) رواه النسائي في السنن الكبرى (٨٠٣١) وابن ماجه (٢١٥) والحاكم (١/ ٥٥٦).
(٥) رواه الترمذي (٢٩٠٥) وابن ماجه (٢١٦).

وقد كان معظم الصحابة شباباً ، سمعوا القرآن الكريم ، وتلقّوا أقوال الرسول ﷺ بذهن متفتح ، وعقلية ناضجة ، فجعلوا القرآنَ ربيعَ قلوبهم ، فكانوا كما عناهم الشاعر :

مَنَـعَ القـرآنُ بـوعـدِه ووعيـدِه مُقَـلَ العيـونِ بلَيْلهـا لا تَهْجَـعُ
فَهِمُوا عن المَلِكِ الكريم كلامَهُ فَهْمـاً تـذلُّ لـه الـرقـابُ وتَخْضَـعُ

وتأثَّر الصحابةُ بالقرآن العظيم تأثُّراً منقطع النظير ، فقرؤوه ، وتلوه آناء الليل وأطراف النهار ، فكانت ألفاظه على ألسنتهم ، ومعانيه تنداح سلوكاً في الواقع ، وخُلُقاً حسناً في النفس ، وأدباً في المجالس والبيوت ومع الآخرين ، ومَنْ منَّا مَنْ لم يسمع بإسلام عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ؟! عندما ذهب إلى بيت أخته فاطمه وصهره سعيد بن زيد ، وأخذ منها صحيفةً فيها آيات من القرآن الكريم ، وما إنْ تلاها حتى فَتَح اللهُ تعالى فؤاده لنسمات القرآن ، وانطلق يُردِّد كلمة التوحيد.

واعتنى الصحابةُ الكرام بقراءة القرآن ، فكان نَفَرٌ منهم يختمونه في كل جمعة مرة ، كعثمان بن عفان ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن مسعود ، وأُبيّ بن كعب ـ رضي الله عنهم ـ.

وأشار النبيُّ ﷺ على عبد الله بن عمرو بن العاص أن يختم القرآن في كل سبع ، إذا قال له : «فاقرأْهُ في سبع»[1].

وتمثَّل الصحابةُ القرآنَ منهجاً في حياتهم ، وسلوكاً إيجابياً في حياتهم ، فكان مهوى أفئدتهم ، وملء نفوسهم ، وظهرتْ آثاره يانعة عليهم تربية صالحة ، وتوجيهاً متألقاً ، فكانوا بُناةً حقيقيين ، ومعلِّمين مرموقين ، وأسوة تُحتذى على مرِّ الأجيال ، وتعاقب السنين.

وكانوا يأخذون القرآنَ غضّاً من فم رسول الله ﷺ ، وبلغوا مرتبة عالية في

---

(١) رواه مسلم (١١٥٩).

جَمْع القرآن مشافهة ، حتى قال عبد الله بن مسعود: واللهِ لقد أخذتُ من في رسول الله ﷺ بضعاً وسبعين سورة[1].

وكان ابنُ مسعود يداوم على تلاوة القرآن الكريم ، ويُرغِّب الناسَ في تعلُّمه وقراءته ، حتى إنه كان يُقرىء الرجلَ الآية ، ثم يقول: لهي خيرٌ مما طلعتْ عليه الشمس[2].

وكان يقول للناس: عليكم بهذا القرآن ، فإنه مأدبةُ الله ، فمن استطاع منكم أن يأخذَ من مأدبة الله فليفعل[3].

ولم يكتفِ رسولُ الله ﷺ بقراءة القرآن ، وإقرائه للناس ، بل كان يطلب منهم أن يسمع تلاوتهم ، ويرتلوه على مسامعه ، فعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسولُ الله ﷺ: «اقرأْ عليَّ». قلتُ: أقرأُ عليكَ ، وعليك أُنْزِل؟! قال: «إني أُحِبُّ أن أسمعه من غيري». فقرأتُ عليه سورة النساء ، حتى بلغتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] قال: «أَمْسِكْ» فإذا عيناه تذرفان[4].

ولمَّا طلب الخليفةُ العادل عمر بن الخطاب قائمةً بأسماء حُفَّاظ القرآن الكريم؛ من عامله على البصرة أبي موسى الأشعري ، كتب إليه أبو موسى أنهم نحو ثلاثمئة وبضعة رجال، فكتب عمر ـ رضي الله عنه ـ رسالةً جاء فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله عمر إلى عبد الله بن قيس ومَنْ معه من حَمَلة القرآن ، سلام عليكم ، أمَّا بعد:

---

(١) رواه البخاري (٥٠٠٠).
(٢) انظره في مجمع الزوائد (٧/ ١٦٦).
(٣) حياة الصحابة (٣/ ٢٢٦).
(٤) رواه البخاري (٥٠٥٠) ومسلم (٨٠٠/ ٢٤٧).

فإنَّ هذا القرآن كائنٌ لكم أجراً ، وكائن لكم شرفاً وذُخْراً فاتَّبِعُوه ولا يتبعنَّكم؛ فإنه مَن اتَّبعه القرآنُ زجَّ[1] في قفاه حتى يدفعه في النار ، ومَنْ تبع القرآن وَرَدَ به القرآن جنَّات الفردوس ، فليكوننَّ لكم شافعاً إن استطعتم ، ولا يكوننَّ بكم ماحلاً[2]؛ فإنه مَنْ شفع له القرآنُ دَخَلَ الجنة ، ومَنْ مَحَل به القرآنُ دخل النار.

اعلموا أنَّ هذا القرآنَ ينابيع الهدى ، وزهرة العلم ، وهو أحدثُ الكتب عَهْداً بالرحمن ، به يفتح اللهُ أعيناً عُمْياً ، وآذاناً صُمَّاً ، وقلوباً غُلْفاً.

واعلموا أنَّ العبدَ إذا قام مِنَ الليل ، فتسوَّك ، وتوضَّأ ، ثم كبَّر ، وقرأ ، وَضَعَ المَلَكُ فاهُ على فيه ، ويقول: اتلُ ، اتلُ ، فقد طِبتَ وطاب لك ، وإنْ توضَّأ ولم يَسْتَكْ حفظ عليه ، ولم يَعْدُ ذلك.

ألاَ وإنَّ قراءةَ القرآنِ مع الصلاة كنزٌ مكنون ، وخير موضوع ، فاستكثروا منه ما استطعتم؛ فإنَّ الصلاة نور ، والزكاة برهان ، والصَّبر ضياء ، والصوم جُنَّة ، والقرآن حُجَّة لكم أو عليكم ، فأكرموا القرآن ولا تهينوه؛ فإن الله مكرمٌ مَنْ أكرمه ، ومُهينٌ مَنْ أهانه.

واعْلَمُوا أنَّ مَنْ تلاه ، وحفظه ، وعمل به ، واتَّبع ما فيه ، كانتْ له عند الله دعوةٌ مُستجابة ، إنْ شاء الله عجَّلها له في دنياه ، وإلاَّ كانت له ذُخْراً في الآخرة ، واعلمُوا أنَّ ما عند الله خيرٌ وأبقى للذين آمنوا ، وعلى ربهم يتوكلون[3].

وقد آتى المنهجُ النبويُّ في القرآن الكريم ثماره اليانعة ، إذ حفظ عددٌ من الصحابة القرآن العظيم ، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : إنَّ رسول الله ﷺ كان يقول : « استقرِئُوا القرآنَ من أربعة ، مِنْ :

---

(١) «زجَّ»: دفع.

(٢) «ماحلا»: خصماً مجادلاً.

(٣) حياة الصحابة (٣/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤).

عبد الله بن مسعود ، وسالم مولى أبي حذيفة ، ومعاذ بن جبل ، وأُبيّ بن كعب»[1].

وبنى شيخ الصحابة أبو بكر الصديق مسجداً بِفناء داره ، وكان يقرأ فيه القرآن[2].

وغير أبي بكر كثير من الصحابة الكرام؛ الذين حفظوا القرآن ، وتدارسوه ، ووعوه في قلوبهم.

وقد أجمل الأستاذُ أحمد جمعة حقوقَ القرآن الكريم ، فقال[3]:

عَرَفَ أصحابُ رسول الله ﷺ حقَّ القرآن الكريم ، فقد: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧ ـ ١٨].

وأدرك الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ قَدْر القرآن الكريم ، وذكروا الله عز وجل بقلوبهم تعظيماً له ، ومعرفة لجلاله ، فكانوا يتلُون القرآن ، وكانت حليتَهم كلماتُ الرحمن ، كما كانت حياتُهم مُتعلِّقة بالقرآن دراسةً وحفظاً وفَهْماً وتفسيراً وعلماً وعملاً ، فكانوا بالقرآن سادة الدنيا ، وأرباب السيادة في كل ميدان.

لا بُدَّ أن نشير إلى بعض حقوق القرآن الكريم على بني البشر؛ ومنها:

ـ على المسلم أن يؤمنَ بأن القرآن كلام الله؛ الذي أنزله على قلب رسوله ﷺ ، وهو خاتم الكتب السماوية.

ـ وعلى المسلم أن يُعظِّم القرآن ، ويعرف فَضْلَه ، فلولاه ما خرج العرب من الجاهلية إلى نور العلم.

ـ وعلى المسلم أن يتلوه حقَّ تلاوة ، وأن يخشع قلبُه لذكر الله ، وما نزل

---

(١) رواه البخاري (٣٧٥٨).
(٢) رواه البخاري (٣٦٩٢).
(٣) القرآن وأصحاب رسول الله ﷺ (١٣٩).

من الحق ، وأن يحفظه ويستظهره ، وأن يتدارسه مع حُفَّاظه وحملته ، ويفهم معانيه ، ويدرك مقاصده ، ويعتبر بأمثاله ومواعظه وقصصه ، ويغوص على دُرره ويواقيته ، فالقرآنُ لا تفنى عجائبه.

وإنَّ من حق القرآن الكريم على كل مسلم أن يفهم علومه ، ويقف مع أحكامه ، فيسير وَفْقها في حياته وسلوكه وخُلُقه ، فلقد كان خُلُقُ رسول الله ﷺ القرآن.

أمَّا القاعدة الثانية من قواعد المنهج النبوي في التربية فهي: **التعليم**. والتعليم لغةً: مصدر تعلَّم ، والتعلُّم مطاوع التعليم. يُقال: علَّمته العلم فتعلَّمه. والتعليم مصدر علم ، يُقال: علَّمه إذا عرَّفه ، وعلَّمه وأعلمه إياه فتعلَّمه ، وعلم الأمر وتعلَّمه: أتقنه. والعلم نقيضُ الجهل. والعلم أيضاً: هو اعتقادُ الشيء على ما هو عليه على سبيل الثقة. وجاء بمعنى: المعرفة أيضاً[1].

ويتصل بالتعليم: التثقيف ، وهو: التأديب والتعليم والتهذيب وإزالة الاعوجاج[2]. كذلك التدريب صنو للتعليم ، ووسيلة له ، وهو من الدربة ، بمعنى: التجربة والتعوُّد حتى يألف الإنسانُ الأمرَ ، ولا ينفر منه.

والغاية من التعليم: التأديب ، وهو تعليم رياضة النفس ، ومحاسن الأخلاق ، وهو يقع على كل رياضةٍ محمودة ، يتخرَّج بها الإنسانُ في فضيلةٍ من الفضائل[3].

وقد امتنَّ الله تعالى بنعمة العلم على رسول الله ﷺ ، فقال عز وجل: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

---

(١) لسان العرب ، والقاموس المحيط ، والمصباح المنير ، والصحاح ، مادة (علم).
(٢) لسان العرب ، والصحاح ، والمعجم الوسيط ، مادة (ثقف).
(٣) المصباح المنير ، والصحاح ، مادة (أدب).

ومن المعروف أنه ﷺ كان لا يقرأ ولا يكتب ، ومع ذلك جاء قومه بأخبار الأنبياء والأمم ، وكان مُعلِّماً للناس الخيرَ والهدى ، ومُبلِّغاً عن ربه ما أُنْزِل إليه من الكتاب .

وقد وردتْ عدَّةُ أحاديث تدلُّ على الغاية من بعثة النبي ﷺ ، وكلها تؤكِّد على فضيلة العلم ، وتحث على تحصيله ، والاجتهاد في اقتباسه من مصادره ، والائتساء بالنبي ﷺ فعن عِياض بن حِمار المجاشعي؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال ذات يومٍ في خُطْبته: «أَلاَ إنَّ ربِّي أَمَرني أن أُعلِّمكم ما جهلتُم مما علَّمني»(١) .

وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل لم يبعثني مُعنِّفاً ، ولكن بعثني مُعلِّماً مُيسِّراً»(٢) .

ولفظ مسلم: «إن الله لم يبعثني مُعَنِّتاً ولا مُتعنتاً ، ولكن بعثني معلِّماً مُيسِّراً»(٣) .

وأصل العَنَت: المشقّة ، والمُعْنِتُ: هو الذي يُوقع العَنَتَ بغيره. والمُتَعَنِّت: هو الذي يحملُ غيره على العمل به .

وقد شهد الصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ بحُسْن تعليم النبي ﷺ ، وأدركوا خِلاله الحميدة ، وشِيَمه المرضيَّة من خلال آدابه النبوية ، وطريقته التعليمية القائمة على الرحمة والرفق ، فكان بمثابة الوالد لهم ، ينصحهم ، ويرشدهم ، ويحبُّ لهم الخير ، وهو القائل: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أُعلِّمكم»(٤) .

وفي هذا تأنيسٌ للمخاطبين لئلا يستحيوا عن مسألته فيما يعرض لهم من

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).
(٢) رواه أحمد (٣/ ٣٢٨).
(٣) رواه مسلم (١٤٧٨).
(٤) رواه أبو داود (٨).

أَمْر دينهم ، كما لا يستحي الولد عن مسألة الوالد فيما عنَّ وعرض له من الأمور. وفي هذا بيان واجب الآباء بضرورة تأديب أولادهم ، وتعليمهم ما يحتاجون إليه من أمر الدنيا والآخرة.

وها هو معاوية بن الحكم السُّلَمي ـ رضي الله عنه ـ يقول: بَيْنَا أنا أُصلِّي مع رسول الله ﷺ إذْ عَطَس رجلٌ من القوم ، فقلتُ: يرحمك الله ، فرماني القومُ بأبصارهم[1] ، فقلتُ: واثُكْلَ أُمِّياه[2] ، ما شأنكُم؟ تنظرون إليَّ. فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم ، فلما رأيتُهم يُصَمِّتُونني ، لكني سكتُّ ، فلما صلَّى رسولُ الله ﷺ ، فبأبي هو وأُمِّي ، ما رأيتُ مُعلِّماً قَبْلَهُ ولا بعده أَحْسَنَ تعليماً منه. فوالله ِما كَهَرني[3] ، ولا ضَرَبني ، ولا شَتَمني ، قال: «إنَّ هذه الصلاةَ لا يَصْلُحُ فيها شيءٌ من كلام الناس ، إنَّما هو التسبيح ، والتكبير ، وقراءة القرآن»[4].

وكان رسولُ الله ﷺ نِعْمَ المعلِّم ، حيث أرسله اللهُ تعالى رحمة للعالمين ، فأكمل به الدِّين ، وأتمَّ به النعمة على عباده المؤمنين ، فشملهم بمحبته ، وأضفى عليهم من توجيهه ، ودلَّهم على خيري الدنيا والآخرة.

قال عبدُ الله بن مسعود: إنَّ رسول الله ﷺ علَّم فواتحَ الخير وجوامعه ، وإنَّا كُنَّا لا ندري ما نقول في صلاتنا حتى علَّمنا[5].

وقال ابنُ عمر: إنَّ رسولَ الله ﷺ أتانا ونحن ضُلَّالٌ فَعَلَّمنا ، فكان فيما علَّمنا أنَّ الله عز وجل أَمَرَنا أن نُصلِّي ركعتين في السفر[6].

---

(١) «فرماني القوم بأبصارهم»: أي: نظروا إليَّ غضباً؛ زَجْراً بالبصر من غير كلام.
(٢) «واثكل أُمِّياه»: وافَقْدَ أمي إياي فقد هلكت. والثُّكْل: فَقْد المرأة ولدها.
(٣) «ما كهرني»: ما قهرني وما نَـهَرني.
(٤) رواه أحمد (٥/ ٤٤٧) ومسلم (٥٣٧) وأبو داود (٩٣٠ و٩٣١) والنسائي (٣/ ١٤).
(٥) رواه أحمد (١/ ٤٠٨).
(٦) رواه النسائي (١/ ٢٢٦).

وقال عبد الله بن مسعود: علَّمنا ﷺ خُطْبة الصلاة ، وخُطْبة الحاجة[1].

وعن أبي رِفاعة قال: انتهيتُ إلى النبي ﷺ وهو يخطبُ ، فقلتُ: يا رسول الله ، رجلٌ غريب ، جاء يسألُ عن دِيْنه ، لا يدري ما دِيْنُه. قال: فأَقْبَلَ عليَّ رسول الله ﷺ ، وتَرَكَ خُطْبتَه حتى انتهى إليَّ ، فأُتي بكرسي ، حَسِبْتُ قوائمه حديداً ، فَقَعَد عليه رسول الله ﷺ ، وجَعَلَ يُعلِّمني ممَّا عَلَّمه اللهُ ، ثم أتى خُطْبتَه فأتمَّ آخرَها[2].

وهذا الرجلُ الغريب الذي جاء سائلاً عن دِيْنِه ، هو من النوع الذي قال فيه النبي ﷺ: «إنَّ ناساً يأتونكم من أقطار الأرض يطلبون العِلْمَ ، فاستوصوا بهم خيراً»[3].

وكان ﷺ يربط قلوبَ المؤمنين بالله عز وجل ، ويدعوهم إلى أن يطلبوا من خالقهم كل ما يحتاجونه ، فيستهدون بربهم ، ويستخيرونه عز وجل ، ليبيِّن لهم الرشد في أمورهم ، إذ يركنون إلى جنابه ، ويُعبِّرون عن محبَّتهم لمولاهم سبحانه وتعالى ، ففي الاستخارة رضا بقضاء الله ، وجَمْعٌ بين خيري الدنيا والآخرة ، علاوةً على ما في حديث الاستخارة من عظيم الثناء على الله سبحانه.

عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يُعلِّمنا الاستخارة كما يُعلِّمنا السُّورة من القرآن[4].

وروى عديّ بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ قال: أتيتُ رسولَ الله ﷺ فعلَّمني الإسلام ، ونَعَتَ لي الصلاة ، وكيف أُصلِّي كل صلاة لوقتها[5].

---

(١) رواه ابن ماجه (١٨٩٢).
(٢) رواه أحمد (٥/ ٨٠) ومسلم (٨٧٦) والنسائي (٨/ ٢٢٠).
(٣) رواه الترمذي (٢٦٥٠) وابن ماجه (٢٤٧).
(٤) رواه البخاري (١١٦٢) وأبو داود (١٥٣٨) والترمذي (٤٨٠) وابن ماجه (١٣٨٣).
(٥) رواه أحمد (٤/ ٢٥٧).

وعن مكحول أنَّ ابنَ محيريز حدَّثه أنَّ رسول الله ﷺ علَّمه الأذان تِسْعَ عشرة كلمة ، والإقامة سبع عشرة كلمة[١] .

كما علَّم ﷺ الصحابة الكرام العبادات كلها ، فعلَّمهم الصلاة[٢] ، والصيام[٣] ، والحج[٤] ، والتشهد[٥] ، والوضوء[٦] ، والدعاء[٧] ، والرقية[٨] ، وعلَّمهم كل شيء حتى قيل لسلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ : قد علَّمكم نبيُّكم كلَّ شيء حتى الخِراءة ، قال : أَجَلْ ، لقد نهانا أن نستقبل القِبْلةَ بغائط أو بول ، أو أن نستنجي باليمين ، أو أن نستنجي بأقلَّ من ثلاثة أحجار ، أو أنْ نستنجي برَجِيْع أو بعَظْم[٩] .

وكان ﷺ يبادر أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ بالسؤال ؛ ليعلِّمهم ، ويهديهم ؛ فعن أبي أيوب الأنصاري قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نَزَل عليَّ ، فقال لي : «يا أبا أيوب ، أَلاَ أُعلِّمك؟!» قلتُ : بلى يا رسولَ الله ، قال : «ما مِنْ عبدٍ يقول حين يصبح لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له المُلْكُ ، وله الحمد ؛ إلاَّ كتب اللهُ له بها عشر حسنات ، ومحا عنه عشر سيئات ، وإلاَّ كُنَّ له عند الله عدلَ عشر رقاب مُحرَّرين ، وإلاَّ كان في جُنَّةٍ من الشيطان حتى يمسي ، ولا قالها حين يمسي إلاَّ كذلك»[١٠] .

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٢) .
(٢) رواه أبو داود (٤٤٧) .
(٣) رواه أحمد (٤/ ٣٧٧) .
(٤) رواه أحمد (٤/ ٦١) .
(٥) رواه أحمد (١/ ٣٧٦) .
(٦) رواه أحمد (٤/ ١٦١ و٥/ ٢٠٣) .
(٧) رواه أحمد (٦/ ١٣٤) وابن ماجه (٣٨٤٦) .
(٨) رواه أحمد (٦/ ٢١) .
(٩) رواه مسلم (٢٦٢) وأبو داود (٧) والترمذي (١٦) والنسائي (١/ ٣٨ ـ ٣٩) .
(١٠) رواه أحمد (٥/ ٤١٤ ـ ٤١٥) .

وعن أبي سعيد بن المُعَلَّى: أنَّ النبيَّ ﷺ مرَّ به وهو يُصلِّي فدعاه، قال: فصلَّيتُ ثم أتيتهُ، فقال: «ما مَنَعَكَ أن تُجيبني؟!» قال: كنتُ أُصلِّي! قال: «ألم يقلِ اللهُ عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]؟! ألاَ أُعلِّمكَ أعظمَ سورةٍ قبل أنْ أَخْرُجَ من المسجد؟!». قال: فَذَهَبَ لِيَخْرُجَ، قلتُ: يا رسول الله، قَوْلَكَ! قال: «الحمدُ لله رب العالمين، هي السَّبْعُ المثاني الذي أوتيتُ والقرآنُ العظيم»[1].

وعن أبي موسى الأشعري: أن النَّبيَّ ﷺ قال له: «يا عبد الله بن قيس، ألاَ أُعلِّمُكَ كلمةً من كنوز الجنة؟! لا حول ولا قوة إلا بالله»[2].

وعن عليّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «ألاَ أُعَلِّمُكَ كلماتٍ إذا قُلْتَهُنَّ غَفَرَ اللهُ لك وإنْ كُنْتَ مغفوراً لك؟!» قال: «قُلْ: لا إله إلاَّ الله، سُبحان اللهِ ربِّ العرش العظيم»[3].

وعن ابن عباس أنه قال: كنتُ رديفَ النبي ﷺ فقال: «يا غلام، ألاَ أُعلِّمك كلمات ينفعك الله بهنَّ؟!» فقلتُ: بلى، فقال: «احفظِ اللهَ يحفظك، احْفَظِ الله تجده أمامك، تعرَّفْ إليه في الرخاء يعرفك في الشدَّة. وإذا سألتَ فاسألِ الله، وإذا استعنت فاستعنْ بالله، قد جَفَّ القلم بما هو كائن، فلو أنَّ الخَلْقَ كلهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، واعلمْ أنَّ في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأنَّ النصر مع الصبر، وأنَّ الفرجَ مع الكرب، وأنَّ مع العسر يسراً»[4].

---

(١) رواه النسائي (٢/ ١٣٩).
«قولَك»: ـ بالنصب ـ أي: اذكره.
(٢) رواه أحمد (٤/ ٤٠٢).
(٣) رواه الترمذي (٣٥٠٤).
(٤) رواه أحمد (١/ ٣٠٧).

ولم يقتصر تعليمُ النبي ﷺ على الرجال والأطفال ، بل طال النساءَ أيضاً ، فعن أسماء بنت عُمَيْس قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «ألاَ أُعَلِّمكِ كلمات تقولينهنَّ عند الكرب؟! اللهُ اللهُ ربي ، لا أُشْرِكُ به شيئاً»[1].

وعن أم هانىء بنت أبي طالب قالت: جئتُ النبيَّ ﷺ فقلتُ: يا رسولَ الله ، إنِّي امرأةٌ قد ثقلتُ ، فعلِّمني شيئاً أقوله وأنا جالسة ، قال: «قولي الله أكبر مئة مرة؛ فإنه خيرٌ لكِ من مئة بدنة مُجلَّلة مُتقبَّلة ، وقولي الحمد لله مئة مرة؛ فإنه خيرٌ لكِ من مئة فرس مُسْرَجة مُلْجَمَة حملتيها في سبيل الله ، وقولي سبحان الله مئة مرة؛ هو خيرٌ لكِ من مئة رقبة من ولد إسماعيل ، تعتقين ، وقولي لا إله إلا الله مئة مرة؛ لا تذر ذنباً ، ولا يسبقه عمل»[2].

كما دعا ﷺ المربِّين كي يأخذوا بأسلوب التعليم؛ توصُّلاً إلى تحقيق المقاصد الدينية ، وتجسيد الأخلاق الفاضلة ، ويكون التعليم مصحوباً بالرِّفق ، وعدم التشديد؛ لئلا يحصل نفورٌ من قبول الدين ، واتِّباع الهدى.

فعن ابن عباس ، عن النبي ﷺ أنه قال: «عَلِّموا ، وبشِّروا ، ولا تُعسِّروا»[3].

وإذا نال المتعلِّم قسطاً من العلم ، فعليه أن يُعلِّم مَنْ وراءه ، ويُخبرهم بكل ما أخذه من معارف وعلوم وآداب.

قال ابنُ عباس: إنَّ وَفْدَ عبد القيس أَتَوا النبيَّ ﷺ فقال: «مَنِ الوفد؟» قالوا: ربيعة. فقال: «مَرْحباً بالقوم غَيرَ خَزَايا ولا نَدَامَىٰ». قالوا: إنا نأتيك مِنْ شُقَّة بعيدة ، وبَيْنَنَا وبينك هذا الحيُّ مِنْ كُفَّار مُضَر ، ولا نستطيع أن نأتيَكَ

---

(١) رواه أبو داود (١٥٢٥) وابن ماجه (٣٨٨٢).
(٢) رواه أحمد (٦/ ٤٢٥).
(٣) رواه أحمد (١/ ٢٣٩).

إلاَّ في شَهْرٍ حرام ، فَمُرْنا بأَمْرٍ نُخْبِرُ به مَنْ وراءنا نَدْخُلُ به الجنة. فأمرهم بأربع ، ونهاهم عن أربع ، أمرهم بالإيمان بالله عز وجل وحده ، قال: «هل تدرون ما الإيمان بالله وحده؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «شهادة أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسولُ الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصومُ رمضان ، وتُعْطُوا الخُمُسَ من المغنم». ونهاهُمْ عن الدُّبَّاء ، والحَنْتَم ، والمُزَفَّت ، والمُقَيَّر. وقال: «احفظوه وأَخْبِروا مَنْ وراءكم»[1].

وعن مالك بن الحُوَيْرِث قال: أتينا النبيَّ ﷺ ونحن شَبَبَةٌ مُتَقارِبُون ، فأَقَمنا عنده عشرينَ ليلة ، فَظَنَّ أنَّا اشْتَقْنَا أَهْلَنَا ، وسألنا عمَّن تركنا في أَهْلنا فأخبرناه ، وكان رقيقاً رحيماً ، فقال: «ارْجِعُوا إلى أهليكم فعلِّموهم ، ومُروهم ، وصلُّوا كما رأيتموني أصلي ، وإذا حَضَرَتِ الصلاةُ فليؤذِّنْ لكم أحدُكم ، ثم ليَؤُمَّكم أكبرُكم»[2].

ومِنْ سمات المنهج النبوي في التعليم؛ أنه بيَّن ثوابَ مُعلِّم الخير ، فعن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلَّموا العلم ، فإنَّ تعلُّمه لله خشية ، وطَلَبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قُرْبَة؛ لأنه مَعَالِمُ الحلال والحرام ، ومَنَارُ سُبُل أهل الجنة ، وهو الأنيسُ في الوحشة ، والصاحبُ في الغُرْبَة ، والمُحَدِّثُ في الخَلْوة ، والدليلُ على السَّرَّاء والضَّرَّاء ، والسِّلاحُ على الأعداء ، والزَّيْنُ عند الأخلاَّء ، يرفعُ اللهُ به أقواماً فيجعلهم في الخير قادةً وأئمةً تُـقْـتَصُّ آثارُهم ، ويُقتدى بفَعالهم ، ويُنتهى إلى رأيهم ، تَرْغَبُ الملائكةُ في خُلَّتِهم ، وبأجنحتها تَمْسَحُهم ، يستغفر لهم كلُّ رَطْب ويابس ، وحيتان البحر وهَوَامُّه ، وسِباعُ البَرِّ وأنعامه؛ لأنَّ العلمَ حياةُ القلوب من الجهل ، ومصابيح الأبصار من الظُّلَم ، يَبْلُغُ العبدُ بالعلم منازلَ الأخيار ، والدَّرجات العُلى في الدنيا والآخرة ، والتفكُّر فيه يعدلُ الصيام ، ومُدارستُه

---

(١) رواه البخاري (٨٧).

(٢) رواه البخاري (٦٠٠٨).

تَعْدِلُ القيام ، به تُوصَلُ الأرحامُ ، وبه يُعْرَفُ الحلالُ من الحرام ، وهو إمامُ العمل ، والعملُ تابعهُ ، يُلْهَمُه السُّعداء ، ويُحْرَمُه الأشقياء»[1].

وعن صَفْوانَ بن عَسَّال المُرادِيِّ ـ رضي الله عنه ـ قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ وهو في المسجد مُتَّكِىءٌ على بُرْدٍ له أحمر ، فقلتُ له: يا رسول الله ، إني جئتُ أطلبُ العلم ، فقال: «مَرْحباً بطالب العلم؛ إنَّ طالبَ العلم لَتَحُفُّه الملائكةُ بأجنحتها ، ثم يركبُ بعضُهم بعضاً حتى يَبْلُغُوا السماءَ الدنيا من مَحبتهم لِما يَطْلُب»[2].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أَفْضلُ الصدقة: أن يتعلَّم المرءُ المسلمُ عِلْماً ، ثم يُعلِّمه أخاه المسلم»[3].

وعن مُعاذ بن أنس ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ عَلَّم عِلْماً فله أَجْرُ مَنْ عَمِل به لا يَنْقُصُ من أَجْر العامل»[4].

وقد حذَّر رسولُ الله ﷺ من العلم المذموم ، وهو ما كان فيه كذب ، أو سوء نيَّة ، أو تضييع للحدود ، فبيَّن ﷺ أن الكذبَ عليه ليس كالكذب على أي مخلوق آخر ، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ كذباً عليَّ ليس ككذبٍ على غيري. مَنْ كذب عليَّ عامداً فليتبوَّأْ مقعده من النار»[5].

وقال ﷺ: «مَنْ رَوىٰ عني حديثاً ، وهو يرى أنه كذب ، فهو أَحَدُ الكاذبين»[6].

---

(١) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٥٤).
(٢) رواه أحمد (٤/ ٢٣٩) والطبراني كما في مجمع الزوائد (١/ ١٣١) وابن حبان (٨٥ و١٣٢٢) والحاكم (١/ ١٠٠) وابن ماجه (٢٢٦) وابن عبد البر في جامع بيان العلم (١/ ٣٢).
(٣) رواه ابن ماجه (٢٤٣).
(٤) رواه الترمذي (٢٦٨٥).
(٥) رواه البخاري (١٢٩١) ومسلم (٣).
(٦) رواه مسلم (٤) والترمذي (٢٦٦٤) وابن ماجه (٣٨).

وَوَرد الوعيدُ على تعلُّم العلم لغير وَجْه الله تعالى ، قال ﷺ: «مَن تعلَّم عِلْماً مِمَّا يُبْتَغَىٰ به وَجْهُ الله ، لا يتعلَّمه إلا ليصيب به غَرَضاً من الدُّنيا ، لم يجدْ عَرْفَ الجنة يوم القيامة»[1].

وقال ﷺ: «مَنْ طَلَب العلمَ ليماريَ به السُّفهاء ، أو يجاريَ به العلماء ، أو يصرفَ به وجوهَ الناس إليه ، أدخله اللهُ النار»[2].

وقال ﷺ: «إنَّ أوَّلَ الناس يُقْضَىٰ يوم القيامة عليه. . .» وذكر منهم: «ورجلٌ تعلَّم العلمَ ، وقرأ القرآنَ ، فأُتي به ، فعرَّفه نِعَمه فعرفها. قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تعلَّمتُ العلمَ وعلَّمتُه ، وقرأتُ فيك القرآن. قال: كذبتَ ، ولكنك تعلَّمت العلمَ ليقالَ: عالم ، وقرأتَ القرآنَ ليقال: هو قارىء ، فقد قيل. ثم أُمِر به فَسُحِب على وجهه حتى أُلقي في النار»[3].

ولا يُقبل العلم ولا التعليم ما لم ينطلقا من قاعدة رضا الله عز وجل ، والإخلاص له سُبحانه ، بعيداً عن الشهرة والرياء والسُّمعة. قال ﷺ: «إن الله لا يقبلُ من العلم إلا ما كان خالصاً وابتُغي به وجهه»[4].

وهكذا تبدو القاعدة العلمية في المنهج التربوي النبوي ذات صفات خاصَّة؛ لتؤدي دورها في بناء الفرد المسلم الصالح ، وتَشييد صرح المجتمع على أُسس متينة من العدل والحق والإيمان.

أما القاعدة الثالثة من قواعد المنهج النبوي في التربية فهي **الحكمة**. ولو تصفَّحنا المعاجم لرأينا أنَّ الحِكْمة عبارة عن: معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم. والحِكْمة: العدل. ورجلٌ حكيم: عدل حكيم. وأَحْكَمَ الأمر:

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٣٨) وأبو داود (٣٦٦٤) وابن ماجه (٢٥٢).
(٢) رواه الترمذي (٢٦٥).
(٣) رواه أحمد (٢/ ٣٢٢) ومسلم (١٩٠٥) والنسائي (٦/ ٢٣).
(٤) رواه النسائي في السنن الكبرى (٤٣٤٨).

أتقنه. والحكيم: المتقِن للأمور. وسُمِّيت الحكمة بذلك لأنَّها تمنعُ صاحبها عن أخلاق الأَرْذال.

والحكمةُ أيضاً: العلم والتَّفقُّه، والكلامُ الذي يقلُّ لفظُه وَيَجلُّ معناه، والكلام الموافق للحق. والحِلْم، والنبوَّة. وأحكمه: أتقنه فاستحكم، ومنعه من الفساد.

وقال ﷺ: «إنَّ من الشعر حكمة»[1] أي: إنَّ من الشِّعْر كلاماً نافعاً يمنع من الجهل والسَّفَه، ويَنْهى عنهما. وقيل: أراد بها المواعظَ والأمثالَ التي ينتفع بها الناس[2].

ونستطيع أن نُحدِّد محاور الحكمة في ثلاثة محاور، هي:

المحور الأول: القول، ويعني:

* الإصابة في القول.
* الكلام التوجيهي إلى الطريق القويم.
* القول الذي لا خَلَل فيه، وليس فيه موضعٌ لِلَيْتَ أو لَوْ.

والمحور الثاني: العلم والعمل، ويعنيان:

* فِعْل الصواب الذي لا اعتراضَ لأحد فيه.
* اسم جامع لكلِّ ما ينبغي عِلْماً وعملاً ومعاشرة وصُحْبة.
* العلم والفقه والفَصْل في القضاء.
* الأمر والنهي.
* الفَهْم والعقل.

---

(١) رواه البخاري (٦١٤٥).

(٢) لسان العرب والقاموس المحيط والمصباح المنير والنهاية في غريب الحديث والأثر والمعجم المدرسي، مادة (حكم).

* الإصابة في الأمور ، والسَّداد في القضايا .

والمحور الثالث: الفِكْر والدِّين ، ويعنيان:

* العدل .

* وَضْع كلِّ شيء في محلِّه المناسب .

* العلم بالأحكام .

* الصواب في المعتقد ، والفقه في الدِّين .

* الهدى والاستقامة .

* الشكر لله ، والحثّ عليه .

والحكيم يوالي العبادات ولا يقطعها ، ويُثابر على الطاعات ، ويُتابعها دونما انقطاع . وهو تقيٌّ ، يداوم على الصِّلة بينه وبين الخالق ، فهو يحبُّ الخير ، ويفعله ، ويدعو إليه ، ويسخط من الباطل ، ويكرهه ، ويُنفِّر منه .

وقد سَلَكَ رسولُ الله ﷺ السبيل الأقوم إلى قلوب البشر ، وامتلك أحاسيسهم ، وحاز مشاعرهم بكل حكمة ولطافة وتؤدة ، وأثار النفوسَ صوت الحق والصلاح والخير ، وَحَفَز الهممَ لتنوير العقول ، وإشادة المجتمع الصالح ، وحرَّك العواطفَ إلى تقوى الله ، واستثار الوجدان لبناء الروح ، والتحليق بالإنسانية إلى مصافِّ الأبرار الأتقياء .

وكان ﷺ يُصرِّف الأمورَ وَفْق الحكمة ، فكل نيَّة ينويها ، وكل رأي يرتئيه ، وكل قول يتحدَّث به ، وكل فِعْل يعمله؛ إنما ينبع من أصالة الحكمة ، وجوهر السَّداد .

وهاهي التربية النبوية تقتبس الحكمة ، وتندغم معها ، فلا انفصال بينهما ، ولا انقطاعَ يفرِّقهما ، لا سيَّما وأنه نبيٌّ كريم ، يتلقى الوحي من السماء ، فكانت الرسالة المحمدية تعليماً محكماً ، وفِقْهاً دائماً ، وسُنَناً تترى مع الأيام . قال عز وجل: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا

عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

ودَعَا اللهُ تعالى نبيَّه محمداً ﷺ إلى أن يدعو الناسَ إلى دين الله، والصراط المستقيم بالقول المحكم الصحيح، الموضِّح للحق، والمزيح للشبهات، من خلال أسلوبٍ مقنع، وعِبَر نافعة، بما يؤثِّر في النفوس، من خلال الرفق والشفقة. قال عز وجل: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقد أولى النبيُّ ﷺ الحكمة مكانة خاصة، فجعلها طِلْبة المؤمن، فلا يزال يطلبها كما يطلب الرجل ضالَّته، فقال ﷺ: «الكلمةُ الحكمةُ ضالَّةُ المؤمن، فحيثُ وَجَدَها فهو أحقُّ بها»[1].

والمطلوب من هذا الحديث: إرشاد المؤمن، وتعليمه أن اللائقَ بحاله أن تكون الحكمة مطلوبه، وأن ينظر إلى القول لا إلى القائل. والحكمة ـ هنا ـ: كل كلمة وعظتك، أو زجرتك، أو دعتك إلى مكرمة، أو نهتك عن قبيحة. والمعنى: أن الناسَ متفاوتة الأقدام في فَهْم المعاني، واستنباط الحقائق المحتجبة، واستكشاف الأسرار المرموزة، فمن قصر فَهْمه عن إدراك حقائق الآيات، ودقائق الأحاديث، ينبغي ألاَّ يُنكر على مَنْ رُزِق فَهْمها، وأُلْهِمَ تحقيقها، ولا ينازع فيه كما لا ينازعُ صاحبُ الضَّالّة في ضالَّته إذا وَجَدَها[2].

وقد بوَّب البخاري ـ رحمه الله ـ في كتاب العلم؛ باباً أسماه: الاغتباط في

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٨٧) وابن ماجه (٤١٦٩).
(٢) فيض القدير (٥/ ٦٥).

العلم والحكمة ، وذكر فيه الحديث الأول المروي عن عبد الله بن مسعود قال: قال النبيُّ ﷺ: «لا حَسَد إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه الله مالاً فسلَّطه على هَلَكته في الحق ، ورجلٌ آتاه اللهُ الحكمةَ ، فهو يقضي بها ، ويُعلِّمها»[1].

والحسدُ المذكورُ في الحديث هو الغبطة ، وهي: أن يتمنَّى المرءُ أن يكونَ له مثل ما لغيره مِنْ غير أنْ يزولَ عنه ، والحرص على هذا يُسمَّى منافسة ، فإذا كان في الطاعة فهو محمود ، وإنْ كان في المعصية فهو مذموم ، وإن كان في الأمور الجائزة فهو مُباح ، فكأنه ﷺ قال في الحديث: لا غِبْطة أعظم ، أو أفضل من الغبطة في هذين الأمرين[2].

وذكر رسولُ الله ﷺ بعض مظاهر الحكمة ، ومنها: الزهد في الدنيا ، والكلام بقدر الحاجة ، ومَن اتصف بهاتين الخصلتَيْن فقد أُوتي الحكمة ، وأدرك دقائقَ الأمور ، وعَرَف شفاء أمراض القلوب ، فحارب اتّباع الهوى ، وأصاب كبد الحقيقة ، وأحكم أعماله؛ إذ نقَّحها من الشوائب ، فكأنه ينظر بنور الله تعالى. قال ﷺ: «إذا رأيتُمُ الرجلَ قد أُعطي زُهْداً في الدنيا ، وقِلَّة مَنْطِق ، فاقْتَرِبُوا منه؛ فإنه يُلْقي الحكمة»[3].

ومِنْ وسائل التربية النبوية: الدعاء ، فعن ابن عباس قال: ضمَّني النبيُّ ﷺ إلى صدره ، وقال: «اللهم عَلِّمْهُ الحكمة»[4].

وزاد ابن ماجه: «وتأويل الكتاب» فدلَّ على أن المراد بالحكمة: السنة؛ لأنها قُرِنَتْ بالكتاب، قال عز وجل: ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [البقرة: ١٢٩].

ونستطيع ـ بعون الله ـ أن نُوضِّح بيِّنات الحكمة النبوية ، فنقول: لقد

---

(١) رواه البخاري (٧٣) ومسلم (٨١٦).
(٢) المفهم؛ للقرطبي (٢/ ٤٤٥) وفتح الباري (١/ ١٦٧).
(٣) رواه ابن ماجه (٤١٠١).
(٤) رواه البخاري (٣٧٥٦) والترمذي (٣٨٢٤) وابن ماجه (١٦٦).

عانى ﷺ من الواقع الذي عاش فيه كثيراً من الصعوبات؛ التي رآها تقفُ في وجه الدعوة إلى الله ، فالواقعُ ممقوتٌ بكل ما يحتوي عليه من أُناس ، وعقائد ، وسلوك ، وموازين ، وأحاسيس.

كذلك كان الواقعُ الجاهلي تسندُه نفوسُ المشركين؛ التي مردتْ على الحق ، وتطاولت على الصلاح ، فرفضتِ الاستسلامَ لله تعالى ، وأوجدت أفكاراً غريبةً عن مقياس الحق ، وجعلتها تطنُّ في أجواء المجتمع؛ مِنْ وثنيةٍ خَرِبة ، وتهاون شديد ، وخَوَر واضح ، وتجرؤ فاضح على الخالق العظيم.

وبرز رسولُ الله ﷺ من بين هؤلاء ، تبدو عليه سيماء الصلاح ، وتركَّزت الأنظارُ إليه؛ لما يحمله من كريم السجايا ، ونبيل الصفات ؛ فكان قدوةً للذين من حوله؛ يَرَوْنَه مثلاً أعلى في الصدق والأمانة والحكمة. . . .

وكلُّنا يذكر بإجلالٍ وإكبار موقفه ﷺ من اختلاف القبائل فيمن يحمل الحجر الأسود ، وهنا برزت الحكمة المحمدية؛ فأعطتْ حلاً للإشكال ، وأخمدتِ الفتنة التي كادتْ أن تشبَّ.

وكان ﷺ يرصد الوقائع بعقلٍ كبير ، ويوازِن بين القضايا فيرجِّح الحق ، ويسحق الباطل ، ولا يخشى لومة لائم ، فيعيد الحقّ إلى نصابه ، ويسعى مع المظلومين حتى يستوفوا حقوقهم ممَّن ظلموهم.

وتذكر كُتُبُ السيرة قصة الرجل الإراشي الذي باع أبا جهل إبلاً له ، ولم يقضه أبو جهل الثمن ، وماطله بالدفع ، واستنجد الإراشيُّ بالقرشيين ، لكنهم خذلوه ، ودلّوه على النبي استهزاءً منهم به؛ لِما يعلمون ما بينه وبين أبي جهل من العداوة ، وانطلق ﷺ مع الإراشي ، وطَرَق البابَ على أبي جهل ، وطالبه بثمن الإبل ، واستطاع ﷺ أن يُحصِّل الحقَّ لصاحبه؛ الذي وقف في نادي قريش ليقول: جزاه الله خيراً ، فقد واللهِ أخَذ لي حقي[1].

---

(١) السيرة النبوية؛ لابن هشام (١/ ٣٩٠).

وكان رسول الله ﷺ يَعِظُ الناسَ بلطفٍ ولين ، ويُخاطب القلوبَ بالرقة؛ مُجسِّداً فيها العاطفةَ الدينية ، بعد أَنْ وَجَد الذين مِنْ حوله يُعانون من مرض التشبُّث بالحياة ، وخداع أنفسهم ، فهم يعيشون في بيئةٍ مادية ، فَقَدَتِ المنهجَ الرباني ، وأضاعتْ مفتاحَ النجاة ، فتخبطتْ في ظلماتِ داهيةٍ هوجاء.

وبدت الحكمةُ النبوية ثمرةً ربانية ، أودعها الله تعالى في نفسه ، فآتتْ أُكُلَها ، وهي تسير بالرَّكْب إلى جادَّة التهيُّؤ ، وتسوق الناسَ إلى ربِّهم ، تُذكِّرهم بالخالق ، وتعظهم بالموعظة الحسنة ، وتدفعهم صوب التخلُّق بالجميل من الصفات ، والحميد من الأفعال ، وتُعطِّرهم بالكلمة الطيبة؛ ليسعوا إلى ذِكْر الله وإقامة الصلاة ، فكانت الدعوةُ إلى التوحيد؛ لتستقيم المشاعر ، وتصلح الأحوال؛ برباط الدين والعقيدة الصحيحة.

ولقد وضعتْ حكمةُ النبي ﷺ الأسسَ التربوية الواضحة للحياة البشرية؛ التي تقومُ على منهاج من جذورها ، إلى روابطها ، إلى مظاهرها ، حيث تنتظم الحياةُ بطبيعة الحق القائم؛ مما يحقق التناسقَ بين الفطرة السليمة وبين نظام المنهج ، ويحقق التوازن بين الحقوق والواجبات الفردية والأُسرية والاجتماعية ، ويحقق النظرة الصحيحة إلى الدار الآخرة ، وأنها مثوى العقاب والثواب. وهذا التناسقُ خاصيَّةٌ أساسية تنبثقُ عن إعمال منهج الله تعالى في أنحاء الحياة ، وأصعدتها.

ونشير إلى بعض سمات الحكمة النبوية في النقاط التالية:

* الإخلاص في القول ، والعمل لله وحده.
* إفراغ النفس من الأهواء والنزوات.
* حُسْنُ الأسلوب ، وابتغاء طريق اللين واللطف.
* النزاهة في الحكم دون الانحياز لأحد الطرفين.
* المجاهرة بالحق دون خوف أو تلعثم.
* عدم القضاء إلا بوجود الأدلَّة.

وكان ﷺ صادقَ الحديث ، والصدق يهدي إلى البر ، والبر يقود إلى الجنة. وكان عليه الصلاة والسلام معروفاً بأداء الأمانة ، وأهم ألوانها: أمانة العقيدة ، وبذْل العلم ، وتعليم الناس ، وحثَّهم على الخير ، وتنفيرهم من الضلال.

وكان ﷺ وفياً بالعهد؛ لذلك أشرقتْ نفسُه ، وارتقتْ فَـنَـقَتْ ، وسَمَتْ فَصَفَتْ. وكان للناحية التفكيرية عند رسول الله ﷺ قيمة كبرى ، جعلته سكِّيتاً ، يسكت عن قول الشر وفِعْله ، ويُصْلِح المجتمع بإسكاتهم عن الانحراف والالتواء.

وكان كلامهُ ﷺ ينطق بالحق ، ويتَّصف بالصدق ، وكلُّ ما أُثِر عنه ﷺ جديرٌ بالتأمل ، والتدبر؛ من أجل العمل والتطبيق ، ونرى من الخير أن نشير إلى بعض أقواله ﷺ؛ ليكون القارىء على تبصرةٍ من أمره ، وليقف على شواهد حديثية تعزِّز موضوع الحكمة في التربية النبوية. قال ﷺ:

* «إنَّ الله يحبُّ الرفقَ في الأمر كله»[1].

* «أَحَبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قلَّ»[2].

* «إذا غضب أحدُكم فليصمتْ»[3].

* «استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان؛ فإنَّ كلَّ ذي نِعْمةٍ محسود»[4].

* «إنَّ الله لا ينظر إلى صُوركم وأموالكم ، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[5].

---

(١) رواه البخاري (٦٠٢٤) ومسلم (٢١٦٥).
(٢) رواه البخاري (٦٤٦٥) ومسلم (٧٨٢).
(٣) رواه أحمد (١/ ٢٣٩).
(٤) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٥/ ٢١٥) والبيهقي في شعب الإيمان (٦٦٥٥) وانظره في مجمع الروائد (٨/ ١٩٥).
(٥) رواه أحمد (٢/ ٢٨٥) ومسلم (٢٥٦٤) وابن ماجه (٤١٤٣).

* «إنما الصبرُ عند الصَّدْمة الأولى»[١].

* «إنَّ أشدَّ الناس ندامةً يوم القيامة رجلٌ باع آخرته بدنيا غيره»[٢].

* «الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة ، وحُسْن السؤال نصف العلم»[٣].

* «تعرَّفْ إلى الله في الرخاء يَعْرِفْكَ في الشدة»[٤].

* «الحياء خيرٌ كله»[٥].

* «الدال على الخير كفاعله»[٦].

* «السَّعيدُ مَنْ وُعِظ بغيره»[٧].

* «الظُّلْم ظُلُماتٌ يوم القيامة»[٨].

* «الكيِّسُ مَنْ دانَ نَفْسه ، وعَمِل لما بعد الموت ، والعاجزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَه هَواها ، وتمنَّى على الله الأماني»[٩].

* «ليس مِنَّا مَنْ لم يرحمْ صغيرَنا ، ويُوقِّر كبيرَنا ، ويأمر بالمعروف ، وينه عن المنكر»[١٠].

---

(١) رواه البخاري (٧١٥٤) ومسلم (٩٢٣).
(٢) رواه البخاري في التاريخ الكبير (٦/ ١٢٨).
(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٦٥٦٨) وانظره في مجمع الزوائد (١/ ١٦٠).
(٤) رواه أحمد (١/ ٣٠٧).
(٥) رواه أحمد (٤/ ٤٢٦) ومسلم (٣٧) وأبو داود (٤٧٩٦).
(٦) رواه أحمد (٤/ ١٢٠) ومسلم (١٨٩٣) وأبو داود (٥١٢٩) والترمذي (٢٦٧٤) والبزار كما في كشف الأستار (١٥٤).
(٧) رواه مسلم (٢٦٤٥) وابن ماجه (٤٦).
(٨) رواه البخاري (٢٤٤٧) ومسلم (٢٥٧٩).
(٩) رواه القضاعي في مسند الشهاب (٤٢) والديلمي في الفردوس (٤٦٩٩) والبيهقي في الزهد (١٠٤) وأبو الشيخ في الأمثال (٨٣).
(١٠) رواه أحمد (١/ ٢٥٧) والترمذي (١٩٢١).

* «مَنْ أبطأ به عملُه لم يسرعْ به نَسَبُه»[1].

* «المجاهد مَنْ جاهد نَفْسَه وهواه»[2].

* «لا تُنْزَع الرحمةُ إلا من شقي»[3].

* «ارْحَمُوا تُرْحَمُوا ، واغْفِرُوا يُغفر لكم»[4].

* «كُفَّ شَرَّكَ عن الناس فإنَّها صدقةٌ منكَ على نفسك»[5].

* «دَعْ ما يريبك إلى ما لا يريبك»[6].

أمَّا القاعدة الرابعة من قواعد المنهج النبوي في التربية ، فهي: **التزكية**؛ لإعداد النفس البشرية ، وتهيئتها لتحمُّل المسؤولية ، والقيام بالتكاليف ، فلا بُدَّ من التخلُّص من الآثام ، والموبقات ، والشرور ، والطفيليات لتكون المهمة ناجحة ، والزرع نَضيراً ، والثمار يانعة.

وقد بيَّن المفسِّرون معنى التزكية ، وأشاروا إلى مضامينها ، فقال أبو السعود العمادي:

﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ بحسب قوتهم العملية ، أي: يُطهِّرهم عن دنس الشرك وفنون المعاصي[7].

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٥٢) ومسلم (٢٦٩٩) وأبو داود (٣٦٤٣) والترمذي (٢٩٤٥) وابن ماجه (٢٢٥).

(٢) رواه أحمد (٦/ ٢٠) والترمذي (١٦٢١).

(٣) رواه أحمد (٢/ ٣٠١) وأبو داود (٤٩٤٢) والترمذي (١٩٢٤).

(٤) رواه أحمد (٢/ ١٦٥) وانظره في مجمع الزوائد (١٠/ ١٩١).

(٥) رواه أحمد (٥/ ١٥٠) ومسلم (٨٤).

(٦) رواه أحمد (١/ ٢٠٠) والترمذي (٢٥١٨) والنسائي (٨/ ٣٢٧).

(٧) تفسير أبي السعود (١/ ١٦٢).

وقال الزمخشري: ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾: ويطهرهم من الشرك، وسائر الأرجاس[1].

وقال أيضاً: ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾: ويطهرهم من دَنَس القلوب بالكفر، ونجاسة سائر الجوارح بملابسة المحرَّمات، وسائر الخبائث[2].

وقال القرطبي: ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ أي: يُطهِّرهم من وَضَر الشرك[3].

وقال مصطفى المنصوري: ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ أي: يُطهِّرهم من رجس الشرك، وعبادة الأوثان[4].

وقال عبد الرحمن السعدي: ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾: أي: يُطهِّر أخلاقكم ونفوسكم؛ بتربيتها على الأخلاق الجميلة، وتنزيهها عن الأخلاق الرذيلة، وذلك كتزكيتهم من الشرك إلى التوحيد، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن الخيانة إلى الأمانة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الخُلُق إلى حُسْن الخُلُق، ومن التباغض والتهاجر والتقاطع إلى التحابب والتواصل والتوادد، وغير ذلك مِنْ أنواع التزكية[5].

وسبق أن أشرنا إلى أن النبي إبراهيم ـ عليه السلام ـ قد دعا ربَّه أن يرسل رسولاً في الأمة المسلمة من أنفسها، يُبلِّغهم ما يُوحى إليه من البيِّنات، ويعلمهم الكتاب المنزل، ويُربِّيهم على أحكام الشرع، والمعارف الحقة، ويطهرهم من الشرك والآثام، فقال عز وجل: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩].

---

(١) الكشاف (١/ ١٨٩).
(٢) المصدر السابق (١/ ٤٣٦).
(٣) تفسير القرطبي (٢/ ١٣٠).
(٤) المقتطف من عيون التفاسير (١/ ١٥٧).
(٥) تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/ ٩٦).

قال صاحب تفسير «المنار»: عَلِم إبراهيمُ أنَّ تعليم الكتاب والحكمة لا يكفي في إصلاح الأمم، وإسعادها، بل لا بُدَّ أن يُقرن بالتربية على الفضائل، والحمل على الأعمال الصالحة بحُسْن الأسوة والسياسة، فقال: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي: يُطهِّر نفوسهم من الأخلاق الذميمة، وينزع منها تلك العادات الرديئة، ويُعوِّدها الأعمالَ الحسنة؛ التي تطبع في النفوس ملكات الخير.

ومَنْ فَهِم أن التزكية تعني أن يكون القلبُ نظيفاً، والنية صالحة، دون أن يقوم بأداء المناسك والأمور التعبدية، فقد ضلَّ سواء السبيل؛ لأنَّ التزكية قوة مُنظِّمة، وحارس واعٍ للمشاعر والتكاليف، فهي طاعة بكل معنى الإيجابية، وترجمة للسلوك العملي وصالح الأخلاق، فلا بُدَّ من اقتران المعرفة التعليمية بالتزكية العملية، وفي هذا صلاحٌ للفرد والمجتمع.

وقد بيَّن القرآنُ الكريم أن الناس قبل الإسلام كانوا في ضلال واضح، وشرود عن منهج الحق، وطريق الاستقامة، فجاء الإسلامُ هادياً إلى الخير، وقائداً إلى بناء الحياة على أسس سليمة من التوجُّه الطاهر الصحيح، والسلوك العملي القويم.

وجاء رسولُ الله ﷺ ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ يعني: القرآن ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي: يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر؛ لتزكُوَ نفوسُهم، وتَطْهُرَ من الدَّنَس والخَبَث؛ الذي كانوا مُتَلبَّسين به في حال شركهم وجاهليتهم ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ يعني: القرآن والسُّنَّة ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ﴾ أي: مِنْ قبل هذا الرسول ﴿لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: لفي غَيٍّ وجَهْل ظاهر جليّ بيِّن لكل أحد[1].

ولكي يزكو الإنسانُ، ويرتقي في معارج الطهر والهداية والنور، لا بُدَّ أن يدرك أمرين اثنين، هما: معرفة الحق، ومعرفة الخير لأجل العمل به. فإذا

---

(١) تفسير القرآن العظيم؛ لابن كثير (١/ ٥١٩).

أخلَّ بشيءٍ من هذين الأمرين ، ونأى عن أحدهما ، فإنه لا يصل إلى الطهارة الحقيقية عن النقائص والرذائل النفسية ، ولا يمكن أن تزكو نفسُه ، ولا أن تسمو مشاعره أو أعماله. فالعلم ضروري ، والمعرفة واجبة ، لكنَّ التزكية هي الطريق الموصِل إلى الفضل والإحسان.

ويأتي دورُ رسول الله ﷺ ليقوِّي الدوافعَ الإيمانية في الإنسان ، ويحثُّه على العمل الصالح ، ويهتمَّ بتربيته على صعيد العقيدة والمعاملات والآداب والأخلاق ، فكان ﷺ يدعو الناسَ بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويرعى فيهم قدراتهم ومَلَكاتهم ومهاراتهم ، لا بالكلام وحده ، ولكن بالأسوة والقدوة الصالحة ، فربَّاهم بالتجسيد العملي ، وأراهم الصورة الصحيحة الصادقة للمسلم؛ قبل أن يدعوهم إلى اعتناق الدِّين.

وقد بيَّن ﷺ سرَّ العقيدة الإسلامية؛ فهي محرِّر المسلم من كل قيد وغلّ ، وتدفعه إلى ممارسة حياته دون خوف أو وَجَل ، وتجعل الإيمان أساس البناء في كل شيء ، فالله وحده يجلب الخير ، ويدفع الشر؛ لذا فمن الضروري أن يعمل المرءُ الطاعات ، ويترك المحرَّمات.

وهاهو رسول الله ﷺ يحرص على تعليم الأطفال ، وتربيتهم ، وتكوين فكرهم المستقيم ، ويغرس مبادىء الإيمان في نفوسهم ، ويُعوِّدهم على روح المراقبة بهدف تحصينهم ، وغرس المرتكزات الصَّحيحة؛ دَفْعاً لكل واردٍ مُشوِّش.

فعن عبد الله بن عباس قال: كنتُ خَلْفَ النَّبي ﷺ يوماً فقال: «يا غلامُ ، إني أُعلِّمك كلمات: احْفَظِ اللهَ يحفَظْك ، احْفَظِ اللهَ تجدْه تُجاهك ، إذا سألتَ فاسألِ الله ، وإذا استعنتَ فاستعنْ بالله ، واعلمْ أنَّ الأمة لو اجتمعتْ على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على

أنْ يضرُّوك بشيء لم يضرُّوك إلا بشيء قد كتبه اللهُ عليك ، رُفِعَتِ الأقلامُ ، وجَفَّتِ الصُّحف»[1].

ويفيدُ الحديثُ[2]:

ـ ضرورة حفظ حدود الله وحقوقه وأوامره ونواهيه ، وذلك بالوقوف عند أوامره بالامتثال ، وعند نواهيه بالاجتناب.

ـ مَنْ حفظ حدود الله ، وراعى حقوقه ، وَجَد اللهَ معه في كل أحواله حيث توجَّه ، يحوطه ، وينصره ، ويحفظه ، ويُوفِّقه ، ويُسدِّده.

ـ الله وحده بيده مقادير كلِّ شيء ، فيسخِّر من يشاء لخير من يشاء وضرّ مَنْ يشاء ، وسؤال غيره سُبحانه من باب العبث ، كمن يفتحُ الأبواب بغير مفاتيحها ، فأنَّى له ذلك؟! وسؤال غير الله إذا اعتقد فيه القدرة على الإجابة إشراك بالله تعالى.

ـ التوجُّه إلى الله القوي القادر على كل شيء؛ لطلب العون بعد اتخاذ الأسباب كافة ، وعندها سيُسخِّر سُبحانه وتعالى من يعين المستعين بفضل الله وتوفيقه.

ـ النفعُ الذي يتحقَّق على يد بعض الناس ليس مصدره الناس ، وإنما مصدرُه ربُّ الناس ، وما الناسُ إلا وساطةٌ لإيصال الخير بأمر الله تعالى.

ـ كذلك الضر الذي يُصاب به الإنسان ليس مصدره الناس ولو ملكوا مظاهر القوة ، وهو مُقدَّر لحكمةٍ يريدها عز وجل.

ـ وعلى المسلم أن يذكر ربَّه في الرخاء ليدفعَ عنه الأذى وقت الشدة والكَرْب.

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٠٧) والترمذي (٢٥١٦).

(٢) شرح الأربعين النووية؛ لسمير العطار (١٠٤).

ـ ولا بُدَّ من الصبر على البلاء ، والرضا والقدر ، وإنما يُوفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب.

ونهى ﷺ عن التقليد؛ الذي لا يثبت على النقد الصَّحيح ، والحقيقة الواضحة ، فعن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكونوا إِمَّعةً ، تقولون إنْ أحْسَنَ الناسُ أَحْسَنَّا ، وإنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنا ، ولكنْ وَطِّنُوا أنفسَكم؛ إنْ أحسنَ الناس أن تُحْسِنُوا ، وإنْ أساؤوا فلا تَظْلِموا»(١).

ومن مقتضيات التزكية: المحبة ، وهي شرط في الإيمان. قال ﷺ: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابّوا»(٢).

والمحبة تقتضي ترك الأذى ، قال ﷺ: «المسلم مَنْ سلم المسلمون من لسانه ويده»(٣).

وشدَّد ﷺ في الإخلاص ، وصُنْع الخيرات ، وحذَّر من الرياء؛ الذي يُفْسِد الأعمال ، ويُحبط ثوابها ، وهو يقلب الفضائل ليجعل منها رذائل؛ لذا جعله ﷺ شركاً ، فقال: «إنَّ أخوفَ ما أخافُ عليكم الشرك الأصغر» قالوا: وما الشِّركُ الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء ، يقول الله عز وجل إذا جُزِي الناسُ بأعمالهم: اذْهَبُوا إلى الذين كُنتم تُراؤون في الدنيا ، فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً»(٤).

وتزكو النفس إذا ابتعدت عن الفضول ، والشرور ، والمخاصمات؛ وعندها تتميز تلك النفس بمكملات الصحة ، وإخراج الصفات المذمومة ،

---

(١) رواه الترمذي (٢٠٠٧).
(٢) رواه أحمد (٢/ ٤٧٧) ومسلم (٥٤) وأبو داود (٥١٩٣) وابن ماجه (٦٨).
(٣) رواه الترمذي (٢٦٢٧) والنسائي (٨/ ١٠٤ ـ ١٠٥).
(٤) رواه أحمد (٥/ ٤٢٨) والبيهقي في شعب الإيمان (٤٨٣١) وانظره في مجمع الزوائد (١/ ١٠٢).

كالحسد ، والرياء ، والكبر ، والعجب . . . لذا قال ﷺ: «مِنْ حُسْن إسلام المرء تركُه ما لا يعنيه»[1].

ولا بُدَّ من الإرشاد ، والتعليم ، والنصيحة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر؛ كي تصلح النفوس ، ويبدو المجتمع معافى من المعاصي والآثام. قال ﷺ: «لتأمرنَّ بالمعروف ، ولتنهونَّ عن المنكر ، أو ليسلِّطنَّ اللهُ عليكم شراركم ، فيدعو خيارُكم فلا يُستجاب لهم»[2].

وحثَّ رسولُ الله ﷺ على التقوى ، وبيَّن علامات المتقي وأماراته ، ووَضَع الدواء الناجع لمن شَرَدَ به الهوى ، ونأى عن الصواب ، فذكر أن عَمَل الحسنات ، والخُلُق الصالح ، هما عماد الحياة ، وأساس الصلاح مع الخالق والمخلوق. قال ﷺ: «اتق اللهَ حيثما كنتَ ، وأَتْبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالِق الناسَ بخُلُق حَسَن»[3].

وقال ﷺ: «لا يبلغُ الرجلُ درجةَ المتقين حتى يَدَعَ ما لا بأسَ به مخافةَ ما به بأس»[4].

ودلَّ النبيُّ الكريم ﷺ على مكارم الأخلاق ، وذكر ثمراتها ، وما يترتَّبُ عليها ، فقال ﷺ: «مَنْ أحبَّ أن يُنْسَأَ له في أَجَله ، ويُبْسَطَ له في رِزْقه ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»[5].

ولكي تزكو النفسُ ينبغي أن تبقى على اتصال بخالقها في كل حركة وسكنة ، وفي مختلف الأحوال والأزمان ، فإذا وَرَدَ أمرٌ محبوب قال: «الحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات»[6].

---

(١) رواه الترمذي (٢٣١٧) وابن ماجه (٣٩٧٦).
(٢) رواه البزار كما في كشف الأستار (٣٣٠٧) وانظره في مجمع الزوائد (٧/ ٢٦٦).
(٣) رواه أحمد (٥/ ٢٣٦) والترمذي (١٩٨٧).
(٤) رواه الترمذي (٢٤٥١) وابن ماجه (٤٢١٥).
(٥) رواه البخاري (٥٩٨٦) ومسلم (٢٥٥٧).
(٦) رواه ابن ماجه (٣٨٠٣).

وإذا جاءه أمرٌ يكرهه قال: «الحمدُ لله على كل حال»[١].

وإذا أراد أمراً قال: «اللهم خِرْ لي، واخترْ لي»[٢].

وإن أراد سفراً قال: «اللهم بك أصول، وبك أحول»[٣].

وإن أراد نوماً قال: «اللهم باسمك وضعتُ جنبي، وباسمك أرفعه»[٤].

وإن استيقظ قال: «الحمدُ لله الذي أحيانا بعدما أماتنا، وإليه النشور»[٥].

وإن لبس ثوباً جديداً قال: «الحمد لله الذي كساني ما أُواري به عورتي، وأتَجمَّل به في حياتي»[٦].

وإن أكل قال: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا من المسلمين»[٧].

وإن شرب قال: «الحمد لله الذي جَعَل الماء عذباً فراتاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أُجاجاً بذنوبنا»[٨].

وإذا انقلب من الليل في فراشه قال: «لا إله إلا الله الواحد القهار، رب السموات والأرض، وما بينهما العزيز الغفار»[٩].

---

(١) رواه الترمذي (٢٧٣٨) وابن ماجه (٣٨٠٤).
(٢) رواه الترمذي (٣٥١٦).
(٣) رواه أحمد (٣٣١٤) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٦١٤).
(٤) رواه البخاري (٦٣٢٠) ومسلم (٢٧١٤).
(٥) رواه أحمد (٥/ ٣٨٥) والبخاري (٦٣١٢) وأبو داود (٥٠٤٩) والترمذي (٣٤١٣) وابن ماجه (٣٨٨٠).
(٦) رواه الترمذي (٣٥٦٠).
(٧) رواه أحمد (٣/ ٣٢) وأبو داود (٣٨٥٠) والترمذي (٣٤٥٣) وابن ماجه (٣٢٨٣).
(٨) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨/ ١٣٧).
(٩) رواه النسائي في عمل اليوم والليلة (٨٦٤).

وإذا هَبَّ من نومه ليلاً قال: «ربِّ اغفرْ وارحم ، واهْدِ للسبيل الأقوم»[1].

وإذا خرج من بيته قال: «باسم الله ، توكلتُ على الله ، ولا حولَ ولا قوة إلاَّ بالله. اللهم إني أعوذُ بك آن أَضِلَّ أو أُضَلَّ ، أو أَزِلَّ أو أُزَلَّ ، أو أَظْلِمَ أو أُظْلَم ، أو أَجْهَلَ أو يُجْهَلَ عليَّ»[2].

وهكذا يكون المسلم متصلاً بخالقه في كل أمر ، ملتجئاً إليه ، معتصماً بحماه ، لائِذاً بجنابه ، وبذا تزكو نفسه ، وتترقى في مدارج السائرين إلى الله عز وجل.

وكان ﷺ أسوة حسنة للآخرين ، حتى شهد بذلك القريب والبعيد ، فقد قالت السيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ تخاطبُ رسول الله ﷺ: واللهِ ، لا يخزيكَ اللهُ أبداً ، إنكَ لتصلُ الرَّحِمَ ، وتصدقُ الحديث ، وتحمل الكلَّ ، وتقري الضَّيْف ، وتكسب المعدوم ، وتُعين على نوائب الحق[3].

ولمّا سأل هرقلُ أبا سفيان ـ وكان كافراً إذْ ذاك ـ عن النبي ﷺ: هل يغدر؟ قال: لا. فقال هرقل: بماذا يأمركم؟ قال: يأمرنا آن نعبدَ الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف. فقال هرقل: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا[4].

فهذا النبيُّ ﷺ قد زكتْ نفسه ، وطهرتْ ، فلم يُعرف عنه غدرٌ أو كذب ، فترقَّى في سُلَّم الكمال ، وتألق في دوحة الإيمان ، فكان النموذجَ الفذّ ، والصورة الآسرة في شتى النواحي ، ومختلف الأبعاد ، وأقام عِوَجَ الحياة ،

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٣٠٣).

(٢) رواه أحمد (٦/ ٣٠٦) وأبو داود (٥٠٩٤) والترمذي (٣٤٢٣) والنسائي (٨/ ٢٦٨) وابن ماجه (٣٨٨٤).

(٣) رواه البخاري (٣) ومسلم (١٦٠).

(٤) رواه البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣).

وردَّ الأمورَ إلى مجراها الفطري الطبيعي ، فلا وثنية ولا شرك ، ولا فضل لأحدٍ على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح .

واقتلع ﷺ جذور الجاهلية من الصدور ، فقال : «ليس مِنَّا من دَعا إلى عصبية ، وليس مِنَّا مَنْ قاتل على عصبية ، وليس مِنَّا مَنْ مات على عصبية»[1] .

فالعصبيةُ القبلية سببُ إثارة الضَّغائن ، وبَذْر الأحقاد في النفوس ، فحثَّ ﷺ على ترك تلك العصبية ، ودَعَا إلى إقصائها عن النفس والمجتمع .

كما حرَّم ﷺ حميـة الجاهليـة ونخوتها ، ففي خطبته ﷺ يوم فَتْح مكة قال : «يا معشر قريش ، إنَّ الله قد أذهبَ عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظُّمها بالآبـاء . النـاسُ من آدم ، وآدم من تـراب» . ثـم تلا هـذه الآية : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣][2] .

وكان لشخصية النبي ﷺ أثرٌ كبيرٌ وعميقٌ في التغلُّب على النزعات الجاهلية ، والنزوات الطائشة التي كانت تطفو بين الحين والآخر .

ففي غزوة بني المصطلق ضَرَب رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال الأنصاري : يا لَلأَنْصار ، وقال المهاجريُّ : يا لَلْمهاجرين . فسمع ذلك رسولُ الله ﷺ فقال : «ما بالُ دعوى الجاهلية؟!» قالوا : رجلٌ من المهاجرين كَسَعَ[3] رجلاً من الأنصار ، فقال رسولُ الله ﷺ : «دَعُوها فإنها مُنْتِنة»[4] .

كما كان ﷺ يُشجِّع الناسَ كي يعطفَ بعضُهم على بعض ، ويساعدوهم ، ويحتملوا ما يصدر عنهم من هفوات ، وإنْ كانوا من غير أقربائهم أو

---

(١) رواه أبو داود (٥١٢١) .

(٢) انظر : السيرة النبوية ؛ لابن هشام (٤/ ٥٤) .

(٣) «كَسَع» : ضَرَب مُؤَخَّرَه بيده ، أو بِصَدْر قَدَمِه .

(٤) رواه البخاري (٤٩٠٥) والترمذي (٣٣١٥) .

عشائرهم ، وفي هذا أعلى درجات الإحسان ، وحُسْن الخُلُق ، وزكاء النفس ، ونَبْذ الجاهلية .

عن أبي سعيد الخُدْري ـ رضي الله عنه ـ قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ ـ وهو يَقْسِمُ قسماً ؛ إذْ أتاه ذو الخُوَيْصرة ـ وهو رجلٌ من بني تميم ـ فقال : يا رسولَ الله ، اعْدل . فقال : «وَيْلَكَ ، ومَنْ يعدلُ إذا لم أعدلْ؟! قد خبتُ وخسرتُ إن لم أكنْ أعدل» . فقال عمر : يا رسولَ الله ، ائْذَنْ لي فيه فأضرب عُنُقَه ، فقال : «دَعْهُ»[1] .

وقد أثَّرت هذه الأقوال والأفعال في جيل الصحابة الكرام ، وتغلغلت في أعماق نفوسهم ؛ لتُغيِّر المفاهيم ، والعادات ، والأفكار الضَّالَّة ، وتُوجِّه الناسَ بالآداب الشرعية ، والأخلاق الفاضلة نحو حياةٍ أفضل ، تُقلِّل من غلواء الجاهلية ، وتُطامِن من خيلائها ، وتحدُّ من انتهاكها لحرمات الإنسان ، فتعيد البشرَ إلى الأصالة ، وتُشْعِرهم بالمسؤولية والإدراك لما يدور حولهم .

ولمَّا زكتْ نفوسُ الصحابة بفعل الإيمان ، تحوَّلوا إلى عجائبَ في الانقياد والطاعة ، وإلى كتلةٍ بشرية متزنة ، نَحَتْ منحى جديداً ، وفتحتْ عهداً سعيداً ، وبَنَتْ مجتمعاً عاقلاً رشيداً .

* * *

(١) رواه البخاري (٣٦١٠) ومسلم (١٠٦٤/١٤٨) .